بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

معركة فُرضت علينا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وعلى من اتبع ما جاء به إلى يوم الدين.

وبعد . . .

فقد فوجئتُ وفوجئ المسلمون كافة -- بل فوجئ العالم كلُّه -- في الغرب والشرق، بكلمات البابا بنديكت السادس عشر التي أساءت إلى الإسلام، في عقيدته، وفي شريعته، وفي شخص نبيه عليه الصلاة والسلام.

واعتبر المسلمون عامة: أن هجوم البابا على الإسلام لم يكن له مُبرِّر يقتضيه إطلاقا، إذ لم يصدُر من المسلمين شيء يُوجب توجيه هذه الهجمة إلى الإسلام.

بل الواقع أن المسلمين في كل مكان، جاملوا البابا منذ

تنصيبه على كرسي البابوية، وكنت ممَّن هنَّأ البابا على منصبه، وتلقيتُ بسبب ذلك نقدا شديدا، بل هجوما صارخا من بعض المسلمين.

جاءت كلمات البابا في محاضرة علمية ألقاها في جامعة غوتنبورغ في جنوب ألمانيا، وهي الجامعة التي كان يُدرِّس فيها (علم الأديان) من قبل - ووصل فيها إلى درجة (الأستاذية) - منذ سنة ١٩٦٩م إلى سنة ١٩٧٧م.

فلم يكن هذا حديثا إلى الجمهور، ولا حديثا ورَّطه فيه صحفي مُشاغب، ولا حديثا عابراً مع زوَّار له، بل كان محاضرة مُعدَّة مدروسة، تُلقى على أكاديميين مُعتبرين، في جامعة مُحترمة، من أستاذ (بروفيسور) مُتخصص في مادته، مُمارس لها سنين عدَّة، فهو يعي ما يقول، ويعني ما يقول.

وهو باعتباره (بابا)، تُدقَّق كلماته، وتُراجع فكرتها ومضامينها وأُسلوبها، من قبل الأُطر والأجهزة العلمية والفنية من حوله، حتى لا يكون فيها ما يقتضي الاعتذار، أو التراجع منه، وهو ما لا يليق بالبابا الذي يُفترض فيه (العصمة) في زعمهم.

ومع هذا كلِّه وقع البابا في ما وقع فيه، من أخطاء وتجاوزات، لا يُعفيه من تبعتها وتحمُّل مسؤوليتها قوله: إن المسلمين لم يفهموا كلامه! أو إنه لم يقصد بها الإساءة إلى المسلمين. إذ الكلام الصريح لا يُبحث فيه عن النية والقصد،

فالنية والقصد ترجع إلى صاحبها، وهل يأثم عند الله أو لا؟ ولكن المُؤاخذة تكون على مضمون الكلام، وما يتضمَّنه من صواب أو غلط، من قصد أو شطط.

وكل الذين سمعوا كلام البابا من المسلمين أو من غير المسلمين: استنكروه واستشنعوه، لما فيه من تهجُّم مقبوح على الإسلام، ونبيه عليه الصلاة والسلام.

وليس معقولا أن كلَّ هؤلاء من أهل الشرق وأهل الغرب، ومن المسلمين وغير المسلمين، لم يُحسنوا فهم ما عناه البابا بكلامه. فالأصل في الكلام أنه يقال ليُفهم مضمونه، ويؤثّر في سامعه، وقد يتطلَّب منه عملا يقوم به، إيجابا أو سلبا. ولا سيما كلام رجل كالبابا له منزلته الدينية والعالمية، وخصوصا بين أتباعه من الكاثوليك، الذين يُضفُون عليه القداسة!

أجل، لم يكن هناك أي توتُّر بين البابا وأي فئة من المسلمين، ولا وُجد باعث ظاهر يدعو إلى رمي هذه القذائف، إلا أن يكون البابا قد أراد أن يُهدي إلى الرئيس الأمريكي بوش – ومعه اليمين المسيحي المُتصهين – هدية تشدُّ أزره في مُحاربة الإسلام تحت عنوان (مُحاربة الإرهاب). فأراد البابا أن يمنحه غطاء دينيا – وإن كان كاثوليكيا – يسنده ويُبرِّر تصرفاته في العراق وغيرها، ما دام يُحارب الإسلام الذي يحمل بذور العنف في تعاليمه، والذي لم يجئ نبيه إلا بالأشياء الشريرة، واللاإنسانية، ومنها نشر دينه بالسيف.

كما اتَّهم البابا الإسلام بأنه بفرضه الجهاد – أو الحرب المقدسة كما سمَّاها – يُنافي العقل، كما يُنافي الطبيعة الإلهية.

وزعم البابا فيما نقله نقل المقرِّ له: أن المشيئة الإلهية عند المسلمين لا يحدُّها شيء، ولا يقيِّدها شيء، ولا بأيِّ نوع من المعقولية.

واتَّكأ البابا على فِقرة نقلها من كتاب للإمبراطور البيزنطي (الأرثوذوكسي): مانويل الثاني الذي نشره رجل الدين الألماني اللبناني الأصل ثيودور خوري: حوارات مع مسلم، (المحاورة السابعة) وهي فِقرة مُسفَّة غاية الإسفاف، تتَّسم بالجهل الفاضح، والتحامل الواضح على الإسلام.

وحين أظهر العالم الإسلامي غضبه على هذه الكلمات المَسيئة، ومنها: ما أصدره الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين من بيانات [1]، زعم البابا أنه ناقل، وكما يقول علماؤنا: ناقل الكفر ليس بكافر. ولكنه نقل هذا الكلام مُستشهدا به، ولهذا لم يردَّ عليه.

من هنا كان علينا نحن أن نردَّ على الكلمات المثيرة التي أساءت إلى عقيدة الإسلام، وإلى شريعة الإسلام، وإلى نبي الإسلام، وإلى كتاب الإسلام، وإلى حضارة الإسلام، وإلى أمة الإسلام.

---

(١) انظر: الملاحق في آخر الكتاب: ملحق (١)، وملحق (٢).

وسيكون ردُّنا ردًّا علميا موضوعيا موثَّقا بالأدلَّة القاطعة من نصوص الإسلام ومن تاريخ أمته، ومن كتاب القوم المقدس أيضا، ليهلك مَن هلك عن بيِّنة، ويحيا من حيَّ عن بيِّنة.

لا ننكر أن في لقاء البابا في جامعة غوتنبورغ بعض الجوانب الإيجابية لا بد أن ننوِّه بها، إحقاقا للحقِّ، وإنصافا للرجل، وقد علَّم الإسلام المسلم: أنه إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحقِّ، وإذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ للّه شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى**﴾ [المائدة: ٨].

فقد ذكروا أن البابا أكَّد على ضرورة تعميق أُطر الحوار بين العالمين المسيحي والإسلامي، معتبرا أن العالم الغربي، قد فقد الاعتقاد بالله في خضم النفعية العملية، (وأزيد على هذا: وفي خضم المادية الحسِّية، والإباحية البهيمية).

كما قالوا: إن البابا دعا: الرئيس الألماني (هورسف كولر) إلى ضرورة أن تعمل الدولة الألمانية على تحقيق اندماج أفضل للمسلمين المقيمين داخلها، محذِّرا من الإفراط في التعقيدات تجاه أبناء الأقلية المسلمة.

فهذا لا يسعنا إلا أن نقدِّره للبابا ونشكره عليه. وقد علمنا ديننا: أنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس (١).

كما نقدِّر للبابا موقفه المحافظ من التيارات الإباحية المنتشرة في الغرب اليوم، والتي بارْكتها - للأسف - بعض الكنائس، مثل: الزواج المثلي، وإباحة الإجهاض بإطلاق، ونزع أيدي الوالدين من تربية أولادهما. وهو ما وقف فيه الأزهر والجهات الإسلامية المختلفة مع الفاتيكان في موقف واحد، ضد هذه الاتجاهات المنحرفة، وذلك في مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤م. ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥م، وغيرها.

ولكنا ننتقد بقوة موقفه من الإسلام؛ الذي لا يقوم على أساس منطقي أو علمي أو تاريخي، والحقُّ أحق أن يتَّبع وينصر.

وإلى القارئ الكريم: بياننا حول هذا الموضوع.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

الدوحة في: رمضان ١٤٢٧هـ
سبتمبر ٢٠٠٦م

الفقير إلى عفو ربه

يوسف القرضاوي

---

(١) إشارة إلى حديث رواه أحمد في المسند (٧٥٠٤)، وقال محققوه: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الصحيح، وأبو داود في الأدب (٤٨١١)، والترمذي في البر والصلة (١٩٥٤)، وقال: حسن صحيح، والطيالسي في المسند (١/٣٢٦)، والبخاري في الأدب المفرد (٢١٨)، والبيهقي في الشعب (٦/٥١٦)، وفي الكبرى (٦/١٨٢)، عن أبي هريرة، ونصه: "مَن لم يشكر الناس لم يشكر الله".

الجزء المتعلق بالإسلام
من محاضرة البابا

بعد حديث عن ذكرياته في الجامعة، وعلاقته بزملائه وغيرهم: قال البابا: (راودت كلُّ هذه الأفكار بالي لما قرأتُ مؤخرا القسم الذي نشره الأستاذ ثيودور الخوري (منستر) من الحوار الذي أجراه القيصر العلامة مانوال الثاني باليجيوس، وهو حوار يعود تاريخه إلى ١٣٩١م في مجلة أنقرة الشتوية، أجراه الإمبراطور مع متعلم فارسي حول المسيحية والإسلام وحقيقتيهما. ولعل القيصر قد صاغ هذا الحوار خلال حصار القسطنطينية بين ١٣٩٤، ١٤٠٢م.

وذلك ما يمكن أن يُفهمنا لم جاءت مداخلاته أكمل من مداخلات محاوره الفارسي، ويشمل الحوار: **مجال التحريفات والإضافات العقدية كلها في التوراة والقرآن، وهي تدور بالخصوص حول صورة الرب وصورة الإنسان**، وكما هي الحال دائما وبالضرورة تعرَّضت إلى العلاقة بين (الشرائع الثلاثة) كما يقال، أو حول (سنن الحياة الثلاثة): العهد القديم والعهد الجديد

والقرآن. لكنني لا أريد أن أتناول من هذه المسائل في محاضرتي إلا مسألة واحدة – وهي تعدُّ بالأحرى مسألة هامشية في بنية الحوار الذي دار بينهما – مسألة خلبت لُبِّي بسبب صلتها مع غرض الإيمان والعقل، وإني جاعلها منطلق تأملاتي في العرض.

ففي المناظرة السابعة التي نشرها الأستاذ الخوري تطرَّق الإمبراطور إلى الكلام على مسألة الجهاد أو الحرب المقدَّسة. فالقيصر كان يعلم بكل يقين أن الآية (٢٥٦) من البقرة تقضي بأن: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾. وهي آية من السور الأولى التي نزلت لما كان محمد – كما قال لنا العارفون – لا يزال عديم القوة وواقعا تحت التهديد.

لكن القيصر بالطبع كان يعلم كذلك أن آيات أخرى من القرآن نزلت بعد ذلك، تتضمن تحديدات وتدقيقات أخرى حول الحرب المقدسة. ودون الدخول في الجزئيات، كالكلام على الفرق بين معاملة أهل الكتاب ومعاملة المشركين، توجه الإمبراطور إلى **محاوره بغلظة نعجب لها**، غلظة تفاجئنا نحن الآن، سائلا بكل بساطة عن القضية المركزية الخاصة بالعلاقة بين الدين والعنف. فقال: (أرني مع ذلك ما الجديد الذي أتى به محمد؟ وسترى أنه

لم يأتِ إلا بكل ما هو شرٌّ وغير إنساني، مثل: أنه يوجب نشر العقيدة التي يبشر بها بحدِّ السيف).

ثم إن القيصر واصل كلامه بعد تسديد هذه الضربة، ليعلِّل: لم يعتبر نشر العقيدة بالعنف مناقضا للعقل؟ فذلك يعارض جوهر الله وجوهر النفس. قال: (إن الرب لا يحب الدم. ولا يلائم العقل أن يعمل الإنسان عملا يعارض جوهر الرب. فالعقيدة ثمرة النفوس وليست من نتاج الأبدان، لذلك فمن أراد أن يدعو إنسانا ليقوده إلى الإيمان، لا بد أن يكون قادرا على الكلمة الطيبة والفكر الصحيح لا على العنف والتهديد ... والإنسان لا يحتاج ليقنع نفسا عاقلة إلى يده ولا إلى أدوات الضرب أو إلى أي أداة يستطيع أن يهدِّده بالقتل بواسطتها).

والجملة الحاسمة في هذا الاستدلال ضدَّ تغيير عقيدة الناس بالعنف تنص: (لا يلائم العقل أن يعمل الإنسان عملا يعارض جوهر الرب).

وقد علَّق ناشر الحوار ثيودور الخوري على ذلك قائلا: إن هذه الجملة بيِّنة بنفسها عند القيصر، فهو بيزنطي نما في بيئة الفلسفة اليونانية. أما بالنسبة إلى العقيدة الإسلامية فإن الله

مطلق التعالي، وإرادته في حلٍّ من كل مقولاتنا حتى لو بلغ الأمر إلى مقولات المعقولية. ثم أيَّد الخوري تعليقه هذا مستشهدا بإشارة المستشرق الفرنسي المشهور روجي أرنلداز إلى ما يراه ابن حزم، الذي يذهب إلى حدٍّ اعتبار الله ليس قادرا على أن يُخلف وعده فحسب؛ بل هو يذهب إلى القول بأن لا شيء عنده يوجب عليه أن يكشف وحيُه الحقيقةَ للبشر، ولو شاء الله لجعل الإنسان للأوثان عابدا (١).

* * *

(١) من ترجمة الكاتب المعروف أبي يعرب المرزوقي لمحاضرة البابا، وقد أرسلها إلينا مشكورا، مع تعليقاته القيمة على المحاضرة.

تمهيد
الكاثوليك والإسلام

إذا كان البابا بنديكيت السادس عشر قد أساء في محاضرته إلى الإسلام، فليست هذه أول مرة يسيء فيها الكاثوليك إلى الإسلام، ويتطاولون عليه، فقد حدث ذلك أكثر من مرة.

حدث من دول مثل فرنسا وإيطاليا، فرأينا تجبُّر فرنسا في استعمارها للجزائر، ومحاولتها طمس هُويَّتها، بحربها المستمرَّة على الإسلام واللغة العربية، وهما الأساسان القويان لهُويَّة الشعب، وكم حوَّلت المساجد إلى كنائس أو متاحف، وكم ... وكم ...

ورأينا تجبُّر إيطاليا على الشعب الليبي في فترة استعمارها له، ومعاملته بكل قسوة وجبروت، وخصوصا مَن قاوموا الاستعمار، مثل عمر المختار ورفاقه.

وقبل ذلك بخمسمائة عام أو تزيد (سنة ١٥٩١م) ساهمت الكنيسة الكاثوليكية مع الدولة الأسبانية في إبادة المسلمين من بلاد الأندلس في إسبانيا، عن طريق التنصير أو القتل أو الهجرة غير الآمنة التي لا توصِّل إلى بلد إسلامي، وانتهى الوجود

الإسلامي نهائيا من الأندلس، بعد أن ظلُّوا فيها نحو ثمانية قرون، أقاموا فيها حضارة شامخة متوازنة، تعلَّمت منها أوربا، واقتبست من نورها ما ساعدها على الخروج من ظُلُمات القرون الوسطى.

ورأينا في العصر الحديث: الذين يصوِّرون الإسلام على غير حقيقته، ويشوِّهون صورته لجماهير المجتمعات الغربية، لينفِّروهم منه، وكتب في ذلك من كتب من المستشرقين والسياسيين - ناهيك بالمبشرين - وغيرهم، وصبُّوا جام حقدهم على الإسلام، مِنْ كل مَن لا يزال يحمل في إهابه الرُّوح الصليبية!

ففي الربع الأخير من القرن التاسع عشر تعرَّض الفيلسوف الفرنسي المعروف (رينان) للإسلام بالنقد العنيف، في محاضرة قريبة في اتجاهها من محاضرة البابا، في جامعة (السوربون) في باريس، عن (الإسلام والعلم)، ردَّ عليها السيد جمال الدين الأفغاني ردًّا موجزا، وردَّ عليها الإمام محمد عبده ردًّا أكثر بيانا وتفصيلا.

وكان مما قاله رينان في محاضرته: (أن الإسلام لا يشجِّع الجهود العلمية، بل هو عائق لها، بما فيه من اعتقاد للغيبيات، وخوارق العادات، وإيمان تام بالقضاء والقدر).

وقد صوَّر رينان: عقيدة التوحيد - التي هي جوهر العقيدة الإسلامية - بأنها تؤدِّي إلى حيرة المسلم! كما أنها تحطُّ به - باعتباره إنسانا - إلى أسفل الدرك!

والحقيقة أن عقيدة التوحيد هي التي تُحرِّر الإنسان من

الخوف والذلِّ واليأس والكآبة والقلق، وتضع يد المسلم في يد الله، وتمدُّه بقوة خارقة، حين يعلم أن الله معه، وأنه قريب منه، وأنه يعلم سرَّه ونجواه، وأنه حافظه وحاميه، فيشعر بالأمن والسكينة التي لا يشعر بها الجاحدون، ولا الشاكُّون، ولا المشركون، والقرآن يعتبر الشرك انحطاطا بالإنسان، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ [الحج: ٣١].

والقول بأن الإسلام يرفع الإله عن الإنسان في علاء لا نهاية له! قول صحيح في ذاته، ولكنه لا يمثِّل الحقيقة كلَّها. فإن الله هو الكبير المتعال، والإسلام يفرِّق بوضوح بين المخلوق والخالق، وبين الباقي والفاني، وبين المحدود والمطلق، فهو تعالى (فوق عباده) وهو (الرب الأعلى) ولكنه - مع هذا - قريب من عباده: ﴿ **وإذا سألك عبادي عنِّي فإنِّي قريبٌ** ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ﴿ **وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ** ﴾ [الحديد: ٤]، ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ** ﴾[ق: ١٦].

كما فسَّر (رينان) عقيدة القضاء والقدر، بأنها تعني: الجبر، وسَلبه إرادة الإنسان ومسؤوليته عن عمله، وهو موضوع طويل الذيول، كثير التفاريع، اختلفت فيه الأديان والفلسفات قديما وحديثا، ومَن رجع فيه إلى القرآن يجده بوضوح يحمِّل

الإنسان تبعة ما يعمل، يقول القرآن: ﴿**قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها**﴾ [الانعام: ١٠٤]. ﴿**من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها**﴾ [الاسراء: ١٥]، ﴿**من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد**﴾ [فصلت: ٤٦]، ﴿**وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون**﴾ [الزخرف: ٧٢]، ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره**﴾ [الزلزلة: ٨].

وبعد رينان جاء فرنسي كاثوليكي آخر، ليسيئ إلى الإسلام وأمته وحضارته، بمقالة يكتبها، تنشرها الصحف الفرنسية، ذلكم هو مسيو (هانوتو) المستشرق الفرنسي، ومستشار وزارة الاستعمار الفرنسية. والتي تُرجمت مقالته ونشرتها صحيفة (المؤيد)، التي كان يصدرها الصحفي الشهير الشيخ علي يوسف، والتي كان لنشرها صدىً واسع في الناس، أثار الرأي العام الإسلامي في مصر، وكان ذلك في نهاية القرن التاسع عشر (١٩٠٠م) الموافق (١٣١٧هـ).

وقد تصدَّى للردِّ على هذا النقد العنيف: أشهر المتحدثين عن الإسلام وأبلغهم في الدفاع عن حماه، في ذلك الزمن: الأستاذ الإمام محمد عبده، الذي ردَّ على (هانوتو) بمقالات ثلاث، اتَّسمت بسَعَة العلم، وعمق الفكر، وقوة الحُجَّة، ونصاعة البيان، والجمع

بين الأصالة والتجديد، وقوة الاطلاع على الثقافة الإسلامية والثقافة الغربية بمدارسها المختلفة. وقد كانت مقالات محمد عبده: حديث الناس، وشغلهم في ذلك الوقت.

تكلم (هانوتو) في مقاله عن تاريخ النزاع بين الإسلام والمسيحية، وتحقُّق الظفر للديانة الأخيرة في القرن التاسع عشر. وقال: (إن فرنسا قد صارت بكل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت صدر الإسلام وكبده (!) فالإسلام يحيط بها في إفريقيا، ويمتدُّ في آسيا إلى الصين، وهو قائم بأوربا في الأستانة **حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصال جرثومته من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحار الشرقية، ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض.**

ثم قال: إن المسلمين في سائر أقطار الأرض يتَّجهون إلى الكعبة وتجمعهم رابطة واحدة، وأنهم يكرهون الدول المسيحية التي تحتلُّهم. فالدراويش يبذرون بذور الحقد والكراهية للدول المسيحية حيث حلُّوا في تنقلاتهم بين البدو والقرى والمدن. وقال: إن المتعصِّبين من المسلمين مثل (السنوسي)، تقوم عقيدتهم على كفاح غير المؤمنين، وعلى كراهية المدنيَّة الحاضرة. وقد لبثوا زمنا مديدا لا يرتبطون بعَلاقة ما مع الدولة العليَّة بسبب ما بينها وبين المسيحية من عَلاقات. وانتهى من هذا العرض إلى قوله: توجد بالأستانة نفسها وبالشام وبلاد العرب ومُرَّاكش عصابة خفية، ومؤامرة سرية تحيط بنا أطرافها، وتضغط علينا من قرب. ويُخشى أن تفترسنا إذا أغمضنا الطرف.

ثم دخل هانوتو في موازنة بين الدينين، فقال: إن المسائل الأساسية في كل دين هي التي ترتبط بالقَدَر، والمغفرة، والحساب. وقال: إن نظرة الأديان والمفكرين إلى هذه المسائل تتمثَّل في اتجاهين: اتجاه يقول بتناهي الربوبية في العظمة والعلو، ويجعل الإنسان في حضيض الضعف ودَرْك الوهن. واتجاه آخر يرفع مرتبة الإنسان، ويخوِّله حقَّ القربى من الذات الإلهية، بما فطر عليه من إيمان وإرادة، وبما أتاه من أعمال صالحة ومن حسنات.

ثم قال هانوتو: إن نتيجة الاتجاه الأول هو تحريض الإنسان على إغفال شؤون نفسه، وبثُّ القنوط في قلبه، وتثبيط همته. أما الاعتقاد بمذهب الفريق الثاني، فهو يؤدِّي إلى الجِلاد والعمل.

ومثَّل للاتجاه الأول بالديانة البوذية، كما مثَّل للاتجاه الثاني بالثقافة اليونانية. ثم قال: إن المسيحية هي الوارثة لآثار الآريين، وهي منقطعة الصلة بالمذاهب الساميَّة، وإن كانت مشتقَّة منها. أما الإسلام فهو متأثِّر بالمذهب السامي، ولذلك فهو ينزل بالإنسان إلى أسفل الدرك، ويرفع الإله عنه في علاء لا نهاية له. وأصول الثالوث السري مشتقَّة من ضرورة وجود إله بشري يمحو ذنب الجنس البشري، ويحمِل المسيحي على إتيان الأعمال التي تقرِّبه من الله. أما الإسلام فهو يتمسَّك بالوحدانية، ويرفض ذلك، فيجعل المسلم كمَن يهوي في الفضاء بحسب ناموس لا يتحوَّل، ولا يملك في ذلك من حيلة غير متابعة الصلوات. فلفظ (الإسلام) معناه: الاستسلام لإرادة الله.

ثم أشار هانوتو إلى اختلاف الباحثين والسياسين الفرنسيين في تصوُّر العلائق التي تربطهم بالمسلمين. فالمسيو (كيمُون) يعتقد أن الإسلام جُذام فشا بين الناس وأخذ يفتك بهم فتكا ذريعا. بل هو مرض مريع، وشلل عام، وجنون ذهولي، يبعث على الخمول والكسل، ولا يوقظه منهما إلا ليسفك الدماء. وهو يرى المسلمين وحوشا ضارية. ويعتقد أن الواجب إبادة خُمسِهم، والحكم على الباقين بالأشغال الشاقَّة، وتدمير الكعبة، ووضع ضريح (محمد) في متحف اللوفر. والمسيو لوازون (القس ياسنت سابقا)، يعتقد أن الإسلام هو الدين المسيحي مُحسَّنا ومُحوَّرا. فهو يعتبر الإسلام أرقى مبدءاً، وأسمى كعبا من المسيحية. وهناك فريق ثالث يتوسَّط بين الفريقين، ويقول: إن الإسلام قنطرة للأمم الإفريقية، ينتقلون بواسطتها من ضفة الوثنية إلى ضفة المسيحية.

ثم قال هانوتو: إن هذه الآراء المتباينة هي التي أحدثت التناقض في أعمال فرنسا الاجتماعية والسياسية والإدارية. وطالب أن تقوم السياسة الاستعمارية على الدراسة العميقة الدقيقة للشعوب الإسلامية وللإسلام)[1] اهـ.

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر للدكتور محمد حسين جـ٢ صـ٣٤٧ وما بعدها، طبعة دار النهضة العربية الثالثة، وانظر أيضا: الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي صـ٣٠ - ٣٤ طبعة دار الفكر. بيروت، وتاريخ الأستاذ الإمام جـ٢ صـ٤٠١ - ٤٢٤.

وقد ردَّ الشيخ الإمام محمد عبده - كما ذكرنا - على هذه الدعاوى الظالمة والزائفة، بمنطق علمي موضوعي تاريخي سليم كلَّ السلامة، لا يستطيع أحد أن يعترض عليه، ولا أن يجد فيه شائبة لتحامل أو تعصُّب، أو اتجاه عاطفي. ولا يتَّسع المجال هنا، لأورد هذا الردَّ النبيل، وأحيل القارئ ليقرأه في موضعه، في تاريخ الأستاذ الإمام، كما أنه نشر منفردا، وكذلك نقل منه وعقَّب عليه أستاذنا الدكتور محمد البهي في كتابه القيم: (الفكر الإسلامي الحديث، وصلته بالاستعمار الغربي). وقد عقَّب على الجانب الفكري من مقالة (هانوتو). أما ما نقله (كيمون) واتهاماته الفاجرة للإسلام، وافتراءته على المسلمين، واقتراحه تدمير الكعبة، ووضع قبر محمد في متحف اللوفر، فهي لا تستحقُّ أن يقف عليها عالم أو مفكر.

ولكنا سننقل عن الإستاذ الإمام في مقام آخر: ردَّه في قضية مشابهة اتُّهم فيها الإسلام بأنه يضادُّ العلم والفلسفة، ولا يتَّسع لهما، كما تتَّسع النصرانية. وذلك في ردِّه على فرح أنطون، ومجلة (الجامعة).

نسينا الماضي وفتحنا صفحة جديدة:

ومع هذه المرارات التي تجـرَّعناها مع الكاثوليك: رأى الكثيرون من المسلمين - وخصوصا من علمائهم ومفكريهم ودعاتهم - أن يفتحوا صفحة جديدة مع الكاثوليك خاصة، ومع النصارى عامة، وعُقدت من حوالي أربعين سنة ندوات وحلقات

ومؤتمرات للحوار الإسلامي المسيحي، رحَّبنا به وفتحنا له صدورنا.

ولم يكن ذلك منا موقفا بعيدا عن الدين، أو خارجا على تعاليمه، مداهنة في ديننا، أو مجاملة لغيرنا. بل هو نصٌّ ما أمر به ديننا في منهج الدعوة إلى الإسلام، وهو الذي بيَّنته الآية الكريمة بكلماتها البليغة الموجزة من سورة النحل: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[النحل:١٢٥].

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة تكون - عادة - مع الموافقين. والجدال - (أو الحوار) - بالتي هي أحسن، تكون - عادة - مع المخالفين.

وقد ذهب وفد من رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، على رأسه الأمين العام للرابطة الشيخ محمد علي الحركان، للقاء الكرادلة والأساقفة في الفاتيكان، وكان في وفد الرابطة عالمان معروفان، هما: الدكتور معروف الدواليبي، والدكتور محمد المبارك، وغيرهما.

وصدرت الحوارات والموضوعات التي تناولها المتحاورون في كتاب.

وصارت حوارات في ليبيا، وحوارات في مصر، وحوارات في غيرهما من البلدان العربية والإسلامية والأوربية.

وشاركتُ في حوار مع أحبار الكنيسة فيما سُمِّي القمة الإسلامية المسيحية الأولى في روما في أكتوبر ٢٠٠١م، وفي القمة الثانية في برشلونة ٢٠٠٣م.

وقلنا: يجب أن ننسى سواد الماضي وظلامه وظلمه، ونعيش على حاضر جديد، ونتطلَّع إلى مستقبل أفضل، يسود فيه التفاهم، والتسامح، بل التعاون بين الأديان الكتابية بعضها وبعض.

ولكن العالم المسيحي للأسف، لا تزال تسري في جنباته بقايا الرُّوح الصليبية القديمة، وإن ظهرت في ثوب جديد، وبأسلوب جديد، اشتركت في ذلك المسيحية الغربية بكل أطيافها ومذاهبها.

تجلَّى ذلك فيما سُمِّي (الحرب على الإرهاب) وهو في الحقيقة: الحرب على الإسلام، وعلى أمة الإسلام.

وتجلَّى ذلك في التضييق على العمل الخيري في كل مكان، وعلى الدعوة الإسلامية في أنحاء العالم، وعلى مسلمي أوربا وأمريكا، وأبرز مثل لذلك: قضية الحجاب في فرنسا.

وتجلَّى ذلك أيضا في الرسوم الدانماركية الكاريكاتورية المسيئة إلى رسول الإسلام، والبالغة في الإساءة والإسفاف حدًّا لا يمكن السكوت عليه.

ثم فوجئنا أخيرا بهذا الهجوم من أكبر شخصية مسيحية

في العالم: بابا الفاتيكان، فهل هذه يا ترى عودة إلى الوراء؟ هل هي حرب صليبية جديدة، كما قالها بوش يوما، وإن اعتذر المعتذرون عنه بأنها سبق لسان؟

دوافع البابا إلى التطاول على الإسلام:

وقد تساءل الكثيرون عن (الدوافع) الحقيقية وراء هذا الهجوم البابوي على نبي الإسلام، وعلى عقيدته، وشريعته، وحضارته، وأمته؟

وتعدَّدت الآراء في التفسير والتعليل، واختلفت في البرهنة والتدليل، لأن النوايا الحقيقية تكنُّها القلوب، والله وحده هو الذي يعلم ما تُخفي الصدور، والبشر لهم الظواهر، والله يتولَّى السرائر.

وقد لخَّص الأستاذ الدكتور عز الدين إبراهيم المستشار في وزارة شؤون الرئاسة في (أبو ظبي)، ورئيس مجلس أمناء (دار زايد للثقافة الإسلامية)، مقالات المتكلمين والمحللين لدوافع البابا تلخيصا حسنا، في دراسته الشاملة عن مقالة البابا، أو قُل عن محاضرته، وأنا أنقله عنه هنا:

(أما عن الدوافع: فقد قامت نظريات لا يمكن القطع بصحة أيٍّ منها، فالله وحده هو المطَّلع على النوايا. ومع ذلك فإن كلا منها يُلقي ظلالا على الموقف وآثاره.

فهناك مَن يقول بأن البابا يريد أن يغطِّي على ماضيه مع الحركة النازية المعادية للصهيونية، أو كما يقال - المعادية للسامية -

فقد كان البابا ضمن الشبيبة الهتلرية في صباه، ثم خدم في سلاح المشاة بالجيش النازي ووقع في الأسر. وهذا الانخراط في النازية لا يمكن أن تنساه إسرائيل وحُماتها، وسوف تُبرز هذه الورقة عند اللزوم إذا كان ذلك في مصلحتها، ولكنها يمكن أن تتناساه إذا خاصم الرجل الدين المُواجه للصهيونية وأتباعه، وهو ما يمكن القول بأن المحاضرة قد قامت به.

وهناك مَن يقول بأن المذهب الكاثوليكي في الولايات المتحدة يعاني من مشكلات أثَّرت على سُمعته لدى المجتمع الأمريكي، فجاءت هذه المحاضرة لتُجامل السياسة الأمريكية وتعاضدها في حربها المسمَّاة أحيانا بالحرب على الإرهاب، وأحيانا أخرى معاداة الفاشية الإسلامية. فها هو الحبر الأعظم يقول ما تقوله السياسة من موقعه كأكاديمي لاهوتي قديم، ورأس للكنيسة الكاثوليكية، ورئيس لدولة الفاتيكان، ويتوقَّع في مقابل ذلك ترميم سُمعة الكنيسة في تلك الديار.

وهناك مَن يقول بأن البابا لا يريد للوجود الإسلامي في أوربا أن يتَّسع ويتثبَّت، وقد عبَّر عن ذلك صراحة في معارضته العلنية، حينما كان (الكاردينال جوزيف راتزنجر) لانضمام تركيا المسلمة إلى الاتحاد الأوربي باعتبار أنها تنتمي لحضارة غيّر متجانسة مع الغرب المسيحي.

وأخيرا هناك مَن يقول بأن البابا ينتمي إلى الفريق الكنسي الذي لا يؤيِّد الحوار الجاد مع الأديان، لأن فيها تعطيلا وتنكُّرا لرسالة التبشير المسيحية (انظر: جون ستوت في كتابه

(Christian Mission in The Modern World). ويستشهد هؤلاء على هذه الدعوى بأن البابا بدأ فترة بابويته بنقل الكردينال البريطاني فيتز جيرالد من موقعه في الفاتيكان إلى الخارج، وهو من أعلام الحوار في روما.

وإذا لم نكن قد أكَّدنا أيًّا من هذه الدعاوى عن الدوافع، فإننا لا نتصوَّر أن الناس سوف يُسقطونها من حسابهم)[1].

وقد سمعتُ من عدد من الأوربيين المسلمين يؤكِّدون: أن دافع البابا هو خوفه مما يرى من انتشار الإسلام في العالم بصفة عامة، وفي أوربا بصفة خاصة، فكان هجومه الحاد والمفاجئ نوعا من الدفاع الخفي أمام ظاهرة انتشار الإسلام السلمي.

نظرة في قصة الإمبراطور البيزنطي:

والحقيقة: أن الباحث المدقِّق في هذه القصة (قصة الإمبراطور البيزنطي ومحاوره) يجدها أقرب إلى التلفيق، منها إلى الحقيقة التاريخية.

فالوضع الذي كان فيه القيصر البيزنطي، وهو وضع المحاصَر المضيَّق عليه من الدولة المسلمة الفتية المنتصرة، دولة بني عثمان: لا يساعد على التفكير في الحوار والمجادلات الدينية. وبلده مهدَّد بالسقوط أمام القوة الزاحفة، وقد حدَّدوا الوقت بأنه سنة ١٣٩١م.

---

(١) محاضرة البابا بنديكيت السادس عشر وتوابعها: دراسة شاملة بقلم الدكتور عز الدين إبراهيم صـ١٥، ١٦، نشرتها جريدة الخليج بتاريخ: ١٨/ ١٠/ ٢٠٠٦م.

والمُحاور الذي ذكره الإمبراطور: شخصيته غير معروفة، بل هو مجهول الاسم، ومجهول العين، ومجهول الحال، ولا يُدرَى: مَن الذي أرسله للحوار مع الإمبراطور؟ وهل تبعث دولة ما للجدال في أمر الدين مع إمبراطور، وصفوه بأنه عالم واسع الاطلاع: مجرد شخص (متعلم)؟ أم يبعثون له علاَّمة متضلِّعا في علوم الدين والكلام والجدل؟

ومن أي بلد قدم؟ من إيران، أي من بلاد الفرس؟ هل الفرس في ذلك الحين كانوا معنيين بجدال البيزنطيين، الذين يقاتلون خصومهم الأتراك؟

وأين موقع هذا المسلم – أيًّا كان قدره ومستواه – في هذا الجدال: ما أسئلته للقيصر؟ وما ردوده عليه؟

بالطبع مصدرنا في هذا كله، هو ما كتبه الإمبراطور مانويل الثاني، فليس لنا لهذه القصة كلِّها مصدر سواه.

ولو كانت قد حصلت بالفعل، ولم يكن افتراضا من الإمبراطور، وهو أسلوب أدبي متَّبع لدى بعض الكُتَّاب، كأن يقول سألني سائل عن كذا، فقلت كذا. أو قال التلميذ الفتى لشيخه المربي، ونحو ذلك ... فإن القيصر لم يكتب هذه المحاورة حال وقوعها أو بعده بقليل، بل يبدو أنه كتبها بعد سنوات، وكتبها كما يريد هو، وأجرى الحوار كما يريد أن يجري.

وسنناقش في الصحائف القادمة بالتفصيل: ما جاء في كلمة البابا على لسان القيصر، مما يتعلَّق بالإسلام ونبيه وعقيدته وشريعته وحضارته وأمته على افتراض وقوع هذه المحاورة.

البابا وتفسير القرآن:

أقحم البابا نفسه فيما لا يُحسنه من علوم القرآن وتفسيره، واجترأ على أن يقول فيه بغير علم، وهو ما لا يليق بمثله، وحوله الخبراء والمستشارون، وما أسهل أن يرجعوا إلى كتاب من كتب التفسير المعتمدة عند المسلمين، فيعرفوا منها المعنى المقبول أو الراجح.

ولكن البابا لم يفعل ذلك، وتعرَّض للكلام في آية [البقرة:٢٥٦]: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾.

قال البابا: إن القيصر كان يعلم بيقين: أن الآية (٢٥٦) من سورة البقرة تقضي بأن: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ وهي آية من السور الأولى، التي نزلت لما كان محمد - كما قال لنا العارفون - لا يزال عديم القوة، وواقعا تحت التهديد.

لكن القيصر كان يعلم كذلك: أن آيات أخرى من القرآن نزلت بعد ذلك تتضمَّن تحديدات وتدقيقات أخرى حول الحرب المقدَّسة (يعني الجهاد).

فالبابا يزعم حسبما قال له العارفون: أن آية: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ كانت من أوائل ما نزل من القرآن، عندما كان محمد ضعيفا عديم القوة، يعيش تحت سلطان مشركي قريش الذين يسودون مكة، ويتحكَّمون في مصيرها.

وهنا يبدو البابا ومن حوله من العارفين الذين يعتمد عليهم: غاية في الضحالة والجهل بالأوليات اللازمة لمعرفة القرآن

وعلومه وتفسيره. فمن المعروف: أن هناك قرآنا مكيًّا (نزل في مكة قبل الهجرة)، وقرآنا مدنيًا (نزل في المدينة بعد الهجرة). وأن سورة البقرة من السور المدنية بالإجماع، وموضوعاتها تدلُّ على ذلك. فكيف تستثنى منها آية واحدة، لتنزل في السور الأولى، أي في أوائل العهد المكي؟! هذا أمر غير مفهوم قط.

ولو رجع البابا والعارفون الذين فسَّروا له الآية، إلى أي كتاب من كتب تفسير القرآن، لعلم أن هذه الآية لم تنزل إلا بعد عدَّة سنوات من الهجرة، أي بعد غزوة بدر، وجلاء بني قينقاع من اليهود، ووقوع غزوة أحد، وجلاء بني النضير، وكان من أبناء الأنصار مَن دخل في اليهودية بنذر أمه: إذا عاش ولدها: أن تُهوِّده! فلما وقع الجلاء من المدينة لبني النضير، قال آباؤهم: أبناؤنا، كيف نَدَعهم يرحلون معهم؟ وأرادوا أن يُكرهوهم على ترك اليهودية، والبقاء مع أهليهم وعشيرتهم وقومهم، فنزلت الآية الكريمة: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾.

وأما ما زعمه البابا من الآيات الأخرى التي نزلت بعد ذلك حول (الحرب المقدسة) أو الجهاد، والتي يرى الإمبراطور البيزنطي - والبابا تبعا له - أنها تحمل في طياتها (العنف) مع الآخر، وتدعو إلى نشر الدين بحدِّ السيف! فسنردُّ عليها في موضعها، ردًّا يُخرس كل معاند، ويُسكت كل مجادل بالباطل.

هذا وقد اعترف البابا أخيرا في تعليقاته على نصِّ المحاضرة: أن ما نقله عن العارفين في آية: ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ لم يكن صحيحا أو دقيقا.